جامعة 8ماي1945قالمة

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة

ينظم: يوم: 21-03-2023.

يوم تكويني لفائدة طلبة الدكتوراه **حول:** إشكالية المنهج الفلسفي

**د. كافي فريدة**

**عنوان المداخلة: المنهج البنيوي بين فرديناند دو سوسير ونعوم تشومسكي**

**المقدمة:**

تعتبر اللغة أعرق مظهر من مظاهر الحضارة، وقد أظهر العلماء والدارسون اهتماما بالمسائل اللغوية منذ القدم، فاهتم فلاسفة اليونان بشأن أصل اللغة ونشأتها وعلاقة الدال بالمدلول، إلا أن هذه الاهتمامات قد عالجت اللغة بطريقة عرضية أي ضمن مسائل فكرية أخرى. لكن هذه الأبحاث لم تكن لها نتائج واضحة نظرا لقدم الظاهرة اللغوية، فانصب اهتمام الباحثين إلى اللغة في حد ذاتها خاصة مع المنعطف اللغوي وما أنجزته الوضعية المنطقية من دراسات فأصبحت اللغة موضوع الفلسفة الأساسي.

وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين ظهرت العديد من الدراسات اللغوية في أوروبا وأمريكا محاولة جعل اللغة علم مستقل قائم بذاته شأنه شأن العلوم الطبيعية، وهذا ما خلق إشكالية في المنهج الذي يمكن أن تدرس من خلاله اللغة، فبعد الدراسات التاريخية للغة، ظهرت اللسانيات التي أخذت على عاتقها مهمة الدراسة العلمية والموضوعية للغة، تدعمت بجهود رائد البنيوية في أوروبا فرديناند دو سوسير، كما انتقلت البنيوية أيضا إلي الولايات المتحدة الأمريكية وتعزّزت بإسهامات علماء اللغة هناك ومن أهمهم سكينر وبلومفيلد ونعوم تشومسكي، والاشكالية المطروحة هنا: هل المنهج البنيوي كفيل بتحقيق علمية اللغة؟ وهل استطاع تشومسكي تجاوز الاسس التي قامت عليها البنيوية في اللغة؟

1. **مدرسة جنيف: فرديناند دو سوسير Ferdinand De Saussure**

على الرغم من أن البنوية ظهرت في مجالات معرفية عديدة كالانثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والادب، إلا انها وجدت ظالتها في اللغة، خاصة وان أول المبشرين بها هو اللغوي السويسري فرديناند دو سوسير في كتابه "دروس في الألسنية العامة" الذي جمعه طلابه بعد وفاته 1916

1. **دو سوسير والقطيعة مع اللسانيات التارخية:**

شهدت الفترة ما قبل البنيوية سيادة الدراسات التاريخية والمقارنة التي اكتسحت الساحة الفكرية خاصة في القرن التاسع عشر، أسس لهذا النوع من الدراسات ثلاث اتجاهات فكرية استندت الى المنهج التاريخي في دراسة اللغة:

* الدراسات المقارنة: جاءت من اجل توضيح العلاقة بين اللغات الهندوأوروبية، أهم دافع لهذه الدراسات هو الرغبة في معرفة اللغة الأم أي الأصلية، فاعتمد الباحثون على عامل الزمن وتتبع مختلف التطورات التي طرأت على اللغة([[1]](#footnote-2))
* اللسانيات البيولوجية: هو اتجاه في اللغة متأثر بنظرية التطور لدارون، نظر الى اللغة على أنها تشبه الكائن الحي، تنمو وتطور، تزعم هذا الاتجاه أوغست شلايشر([[2]](#footnote-3))
* الاتجاه الفيلولوجي: الذي اهتم بدراسة النصوص القديمة وتحقيقها ومقارنتها، وكانت الغاية هي دراسة أدب اللغات المدونة وثقافتها([[3]](#footnote-4))

هذه الاتجاهات التي عالجت اللغة وفق منهج تاريخي هي اتجاهات لا ترقى الى تحقيق دراسة علمية او موضوعية للغة حسب دو سوسير، لان الرجوع الى التاريخ من شأنه أن يؤثر على أحكام اللغوي وبالتالي يشوه دراسته، فنجده ميز بين نوعين من الدراسات: الدراسة الآنية Vertical synchronic and paradigmatic والدراسة التعاقبية Linear horizontal diachronic and syntagmatic حيث يقول:"قلة من الألسنيين الذين تفطنوا الى ان تدخل عامل الزمان من شأنه ان يخلق صعوبات من نوع خاص في الالسنية والتمييز بين التزامن والتعاقب هو اكثر ضرورة للالسني ذلك ان اللغة نظام من القيم المحض التي لا يحدد حقيقتها شيء باستثناء الوضع الذي تكون عليه عناصر كل النظام في زمن معين"([[4]](#footnote-5))

لذلك أقام سوسير العديد من التقابلات التي أسست لمنهجه البنيوي أهمها:

اللغة والكلام:

فاللغة هي واقعة اجتماعية موجودة في ذهن كل متكلم بشكل لا واعي، في حين الكلام فهو التطبيق الفعلي لهذه اللغة

الدال والمدلول: فالدال هو الجانب المنطوق او المكتوب من الكلام، أما المدلول فهو التصور الذهني له

التزامن والتعاقب: فالتزامن يعني الثبات ونفي الحركة، في حين التعاقب هو الدراسة التاريخية التي ترجع الى أصل الاشياء([[5]](#footnote-6))

1. **النظرية اللغوية عند ليونرد بلومفيلد:**

بعد انتقال البنيوية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، اجتهد بعض العلماء والمفكرين من أجل تطبيق المنهج البنيوي على الظاهرة اللغوية، وعندما شرع بلومفيلد في تأليف كتابه الهام "اللغة" Language 1933 أعلن صراحة عن التزامه بالمذهب السلوكي كمنهج لوصف اللغة، واعتقد ان اللغة الانسانية شأنها شأن أي نشاط فزيولوجي آخر تخضع لمبدأ المثير (الباعث) Stimulus والاستجابة Response وبالتالي فهي عملية آلية محضة([[6]](#footnote-7))

1. **موقف تشومسكي من المنهج البنيوي:**
2. **نقد بنيوية دو سوسير:**

يمكن القول أن أهم ما لفت انتباه تشومسكي في كتابات فرديناند دو سوسير Ferdinand de Saussure (1857\_1913) اللغوية هو مفهوم اللغة الذي تطرق لها على أنها:«نتاج اجتماعي طبقا للمفهوم السوسيري عن المصطلح la langgue»([[7]](#footnote-8)) ومن المعروف أن الدراسات اللغوية في هذه الحقبة قد اعتمدت المنهج الوصفي([[8]](#footnote-9))الذي كان القصد منه تحويل اللغة إلى علم، وكان هذا المنهج قد جاء كثورة على الدراسات التاريخية قبله([[9]](#footnote-10)). إلا أن تشومسكي عارض هذا التصور مبينا أن اللغة الإنسانية ليست نتاج اجتماعي، بل ترجع إلى قدرة داخلية، هذه القدرة التي يعجز المنهج الوصفي عن تفسيرها نظرا لأن مجال انشغاله لا يتعدى المظهر السطحي للكلام([[10]](#footnote-11)) وهذه المظاهر السطحية لا تترجم حقيقة الظاهرة اللغوية، ففي كل جملة يميز بين بنية سطحية Surface Structure وبنية عميقة Deep Structure؛ تتعلق البنية السطحية بالجانب المادي من اللغة أي الصوت، أما البنية العميقة فترتبط بجانب المعنى حيث يقول:«بنية عميقة تحدد تفسيرها الدلالي، وبنية سطحية تحدد تفسيرها الصوتي».([[11]](#footnote-12))

يرى تشومسكي أن المنهج البنيوي منهج محدود المجال([[12]](#footnote-13)) ومنه حاول تفسير العملية اللغوية بوجود قدرة داخلية سعى إلى توضيحها بعرضه لمثال يشبّه فيه المعرفة بالفاكهة التي ترجع أسباب نموها إلى قوة الشجرة الداخلية وليست إلى عوامل خارجية «فنمو المعرفة... أشبه ما يكون بنمو الفاكهة: فمهما يمكن أن تتعاون بدرجة ما الأسباب الخارجية، فإن ما يجعل العصائر تصل إلى مستوى نضجها التام هو قوة الشجرة الداخلية وميزتها (James Harris)»([[13]](#footnote-14)). وعلى هذا الأساس، فقد ركز تشومسكي كثيرا على أهمية التفسير Explanation لأن مهمة الباحث اللغوي حسب تصوره هي تعليل وتفسير تلك العوامل الكامنة خلف المظهر السطحي للغة.

1. **نقد التوجه السلوكي في اللغة:**

استلهم أصحاب هذا التوجه تصورهم للغة من المبادئ التي قامت عليها المدرسة السلوكية([[14]](#footnote-15)).ويعتبر عالم اللغويات الأمريكي ليونرد بلومفيلد Leonard Bloomfield (1887ـ1949) من أكثر المفكرين الذين آمنوا بفكرة تطبيق المنهج السلوكي على اللغةوكان الهدف الرئيسي لبلومفيلد هو أن يجعل من اللغة علما مستقلا (Autonomous) يحتكم إلى صفة العلمية (Scientific)([[15]](#footnote-16)) اعتقادا منه بأن هذا كفيل بالارتقاء باللغة إلى مستوى العلم، وهذا لا يتم بنظره إلا من خلال إخضاع العملية اللغوية إلى الملاحظة المباشرة، وعلى هذا الأساس فإنه حاول وصف اللغة حسب السياق الذي ترد فيه؛ أي حسب الزمن والمكان، فرأى أن الحادث اللغوي «يتكون من ثلاثة أجزاء حسب الترتيب الزمني: الأحداث التي تسبق فعل الكلام، ثم الأحداث العملية التي تلي فعل الكلام».([[16]](#footnote-17)) وبما أن العملية اللغوية مرهونة بالسياقات والشروط الخارجية، فاللغة كأي سلوك آخر يمكن أن يكتسبه الإنسان. وبلومفيلد (كمؤيد لهذا التوجه) رأى أن كل قول مرتبط بمثير واستجابة، وبالتالي، لا تخرج اللغة عن كونها جملة من الاستجابات لمثيرات حسية خارجية لا دخل للعقل في تكوينها، وعليه، أطلق بلومفيد على الأحداث التي تسبق فعل الكلام "تحفيز المتكلم" «Speaker’s Stimulus» ([[17]](#footnote-18)) والأحداث التي تلي فعل الكلام هي "استجابة المستمع" «Hearer’s response»([[18]](#footnote-19)).

وتشومسكي، في نقده للتصور السلوكي، يؤكد أن المفاهيم والحجج التي قام عليها عاجزة عن تفسير النشاط اللغوي لدى البشر، وحتى مبدأ "القياس" Analogy الذي اعتمد عليه السلوكيون الذي مفاده أن كل قول يقوله الإنسان هو نتيجة لكلام آخر كان قد سمعه من قبل، هو تصور غير ملائم لتفسير اللغة حيث يقول:«وأما بلومفيلد (1933)، فرأى أنه عندما ينتج المتكلم أنشالا كلامية لم يكن قد سمعها من قبل فإننا نقول إنه تلفظ بها بالقياس على أشكال شبيهة كان قد سمعها...وهذه الفكرة ليست خاطئة بل هي فارغة»([[19]](#footnote-20)).

**3- توجه تشومسكي العقلاني**

بعد أن أثبت تشومسكي إفلاس الحجج التي قامت عليها المدارس البنيوية التي سبقته، اتخذ الدرس اللغوي معه منحى آخر يميل أكثر إلى العقلانية منه إلى التجريبية، والملاحَظ أنه تأثر ببعض الفلاسفة العقلانيين الذين أسّسوا للتوجه العقلي في الفلسفة بشكل عام، فما هي أهم ملامح هذا التوجه في فلسفته؟

**أ- النحو العام (العالمي)** Universal Grammar

يبدو من خلال فهم فكر تشومسكي أنه يـعارض وبشدة الاتـجاهات التـجريبية المادية -كما تجسدت مثلا في سلوكية بلومفيلد- حيث يرى أن التجريب منهج غير ملائم إذا تعلق الأمر بالإنسان، وقد نظر إلى هذه المسألة من وجهة نظر أخلاقية؛ أي أنه من غير اللائق أخلاقيا أن يكون الإنسان محل تجارب إذ يقول:

«إن التجريب على بني الإنسان مستبعد لأسباب خلقية، فنحن لا نرضى أن يكون الناس موضوعا للتجريب وهو ما نرضاه للحيوان (سواء كان ذلك بحق أو بغير حق)، لذلك لا يُنَشّأُ الأطفال في بيئة متحكم فيها من أجل أن نرى ما اللغة التي سيكتبونها تحت ظروف متعددة مصوغة تجريبيا. كما أننا لا نسمح للباحثين أن يغرسوا أقطابا كهربائية في الدماغ الإنساني من أجل أن تدرس عملياته الداخلية أو أن نفصل أجزاء منه جراحيا لكي نعرف الأثر الذي سينتج، وهو ما يفعل كل يوم في غير الإنسان».([[20]](#footnote-21))

**ب- المظهر الإبداعي للغة:**

يرتبط المظهر الإبداعي للغة (Creative Aspect) عند تشومسكي، في الواقع، ارتباطا مباشرا بالمسألة التي أثارها حول ذلك الفارق بين المعطيات التي يتلقاها المتعلم مقارنة مع ما ينتجه في وقت قصير جدا، وهذا ما لخصه في ما أسماه "مشكلة أفلاطون". انطلاقا من هذا الإطار، حاول تفسير تلك الفجوة بالمظهر الإبداعي للغة، أي أنه رغم تلقي الطفل لكمية محدودة من الكلمات، إلا أنه يستطيع ابتكار كلمات جديدة لم يكن قد تعلمها من قبل، وهو ما يتيح أمام البشر فرص التفاعل والتكيف حسب مختلف الظروف حيث يقول:«نفهم بوضوح أنه من الخصائص الأساسية التي تتصف بها جميع اللغات بصورة مشتركة هي المظهر الإبداعي، فهذه هي الخاصية الأساسية التي تمتاز بها اللغة من حيث أنها توفر للإنسان وسيلة للتعبير عن الأفكار بصورة غير متناهية، وللتفاعل المناسب في عدد غير متناه من المواقف والأوضاع الجديدة».([[21]](#footnote-22))

**خاتمة:**

ختاما، يمكن القول أن رغم أهمية المنهج البنيوي في دراسة اللغة، وسعي رواده إلى جعل الدراسة في العلوم الإنسانية تضاهي دقة وموضوعية العلوم الطبيعية، إلا أن هناك عدة عوائق تحول دون تحقيق هذه الغاية، فتشومسكي اعتبر الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن أن يغيّر من سلوكاته تحت أي ظرف وبالتالي لا يمكن التنبؤ بأفعاله، وإذا تعلق الأمر باللغة فإن المنهج الوصفي التجريبي يبقى عاجزا عن تفسيرها وتفسير العوامل الكامنة خلف المظاهر السطحية للكلام، خاصة عند الحديث عن الإرادة الحرة التي يتمتع بها الانسان. لكن لا يمكن إنكار جهود رواد المنهج البنيوي في مجالات معرفية عديدة والتي حققت جزء كبير من الغاية التي جاء من أجلها المنهج البنيوي، إلا ان إشكالية المناهج في الفلسفة تظل قائمة لأنها تنطلق من تلك العلاقة بين العلم والفلسفة.

1. - عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، ص 120 [↑](#footnote-ref-2)
2. - ميلكا إيفيتش: اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، المجلس الاعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط2، 2000، ص 57 [↑](#footnote-ref-3)
3. - عياد حنا وآخرون: معج اللسانيات الحديثة انجليزي عربي، مكتبة لبنان ناشرون، 1997، ص 101 [↑](#footnote-ref-4)
4. - فرديناند دو سوسير: دروس في الالسنية العامة، ترجمة: صالح القرمادي وحمد الشاوش، محمد عجينة، الدار العربية للكتاب، تونس، 1985، ص 128 [↑](#footnote-ref-5)
5. - الزواوي بغورة: الفلسفة واللغة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 135 [↑](#footnote-ref-6)
6. - جون ليونز: نظرية تشومسكي اللغوية، ص ص 68-69 [↑](#footnote-ref-7)
7. - نعوم تشومسكي: المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة: محمد فتيح، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1993، ص 74. [↑](#footnote-ref-8)
8. - حتى سميت باللسانيات الوصفية Descriptive Linguistics وهي دراسة اللغة مع الالتزام بالمقاييس الموضوعية، وتتأسس هذه المعايير على ذلك الفصل بين ما له علاقة بالظاهرة المدروسة، وابراز وجوه التقابل الثنائية Binarity (ميلكا إفيتش: اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح، وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط2، 2000، ص 199). [↑](#footnote-ref-9)
9. - وهذا واضح من خلال نص لدي سوسير يقول فيه:«فعلى اللغوي الذي يرغب في فهم حالة لغوية أن ينبذ جميع المعرفة المتعلقة بالأمور التي أدت إلى تلك الحالة، ويهمل العامل الزمني...لأن تدخل التاريخ لا ينتج عنه سوى تشويه أحكام اللغوي.» (فرديناند دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، دط، 1975، ص 100). [↑](#footnote-ref-10)
10. - للإشارة فقد ظهر المنهج الوصفي متأثرا بالمناهج العلمية الحديثة التي تقوم على الملاحظة والاستقراء والتجربة واتخذوا منها معايير لاشتقاق الحقائق (غازي مختار طليمات: في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط2، 2000، ص 108). [↑](#footnote-ref-11)
11. - Noam Chomsky: Aspect of the theory of syntax, The MIT Press, 1965, p16. [↑](#footnote-ref-12)
12. - نعوم تشومسكي: المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخداماتها، ص 58. [↑](#footnote-ref-13)
13. - المصدر نفسه، ص 52. [↑](#footnote-ref-14)
14. - السلوكية behaviorism هي "مذهب أنشأه العالم الأمريكي واطسون B.Watson J. لتفسير السلوك بوصفه استجابة فيزيولوجية للمنبهات الخارجية، ويرفض الشعور موضوعا والاستبطان منهجا، ويأخذ بالمنهج التجريبي الموضوعي كما في العلوم الطبيعية معتمدا على تجارب بختريف (1857\_1927) وبافلوف (1849\_1936) في الافعال المنعكسة الشرطية."(مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص 352). [↑](#footnote-ref-15)
15. - جون ليونز: نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة: حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، دط، 1995، ص 66. [↑](#footnote-ref-16)
16. - Leonard Bloomfield, Language copyright in U.S.A, 1933, p.23. [↑](#footnote-ref-17)
17. - Ibid, p23. [↑](#footnote-ref-18)
18. - Ibid. [↑](#footnote-ref-19)
19. - نعوم تشومسكي: المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، ص ص 93-94. [↑](#footnote-ref-20)
20. - نعوم تشومسكي: اللغة ومشكلات المعرفة، محاضرات ماناجوا، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص 189. [↑](#footnote-ref-21)
21. -Noam Chomsky: Aspect of the theory of syntax, p 6. [↑](#footnote-ref-22)